المعالم العمرانية القديمة في قلعة كركوك

أ.م. د. سعدي إبراهيم الدراجي

مركز إحياء التراث العلمي العربي – جامعة بغداد

saadiib@yahoo.com

الملخص

تبحث هذه الورقة بالمعالم العمرانية الباقية في قلعة كركوك، ولا تشمل الابنية التراثية القائمة خارج القلعة. وتنحصر المعالم في القلعة بالتحصينات العسكرية التي شهدتها المدينة إبان العصر العثماني، وأهمها بقايا الأسوار القائمة على حافة التل، والمداخل الرئيسة التي كانت تقود الى الداخل. وكذلك شملت بعض الأبنية الدينية مثل المساجد والأضرحة والكنائس، ثم الأبنية الخدمية وأهمها قيصرية تعود إلى العصر السلجوقي ومجموعة من بيوت السكن.

إن أهمية الموضوع تكمن بدراسة هذه الأبنية وتوثيقها، ومعرفة مخططاتها وطراز بنائها لجعلها حلقة في سلسلة العمارة الإسلامية المتاخرة، ومن فوائد البحث هو تأكيد هوية المعمار العراقي الذي أسهم في تشييد الأمثلة التي قامت عليها الدراسة .

Ancient architectural landmarks in Kirkuk Castle

Dr. Saadi Ibrahim Al Daraji

Center Revival of Arabian Science Heritage-University of Baghdad

Abstract

building to make it a link in the series of the late Islamic architecture This study examines the remaining architectural features in Kirkuk Castle,which does not include the heritage buildings outside it. The castle's fortifications are limited about military samples of the city during the Ottoman era ,concentrating on the importance remains of the walls that held on the edge of the hill leads to the interior, As well as some religious buildings such as mosques, shrines and churches, and the service buildings with most important caesarean dating back to the Seljuk era and a range of housing The importance of the subject lies in the study of these buildings , documentation, and knowledge of the designs and models of.

المقدمة:

شاهد ياقوت الحموي (ت626هـ) قرية تقع بين داقوق وأربيل اسمها (كَرخِيني)، ووصفها بأنها قلعة حصينة قائمة على تل عال ولها ربض صغير[1]، وهذا الوصف بحسب رأي معظم الباحثين ينطبق على "كركوك" الحالية، ومنهم مصطفى جواد، الذي أقر ذلك وحدد العصر الذي سميت به بلدة كرخيني بكركوك إذ يعتقد أن التسمية أطلقت في أثناء حكم الدولة القراقوينلية، التي تعرف بدولة الخروف الأسود وهي تركمانية حكمت من سنة (814هـ - 1411م) حتى سنة (873هـ-1468م). وحاول مصطفى جواد أن يبرهن من النصوص التاريخية التي وجدها في بطون بعض المصادر القديمة أن البلدة موضوع الدراسة كانت قبل العصر العثماني تارة تذكر باسم كركوك وتارة أخرى باسم كرخيني، وإن الاسمين كانا يتنازعان في الشهرة حتى غلب بمرور الزمن الاسم الجديد على القديم[2]، ويبدو أن كرخيي كانت من القلاع المهمة التي أدت دوراً في العصر الاتابكي إذ دخلت في حكم عماد الدين زنكي في سنة 534هـ -1139م، ثم أنضوت تحت الحكم الأيوبي بوصفها تابعة الى أربيل، وما لبثت أن أصبحت في حماية الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت622هـ).

وعن تاريخ المدينة فالحقيقة هناك شحة في المعلومات، إذ يرد ذكر كرخيني (كركوك) في حوادث سنة 628هـ - 1230م، إذ وصلت طائفة من جيش التتر المغول القادمين من أذربيجان الى أربيل فقتلوا من صادفهم في طريقهم من التركمان والأكراد وغيرهم إلى أن دخلوا بلدة أربيل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به من أهل تلك البقاع ثم وصلوا الى الكرخيني وداقووق وانسحبوا ولم يخرج لقتالهم أحد[3]. وفي سنة 629هـ -1231م وردت الأخبار بانتشار عساكر المغول في بلاد أذربيجان ونواحي شهرزور فأخرج الخليفة المستنصر بالله الأموال وجهز العساكر وأرسل إلى سائر البلاد للجمع والاحتشاد، فبرزوا إلى ظاهر البلد وتجهزوا وساروا ومقدمهم جمال الدين قشتمر الناصري، ومعه جمع من الأمراء فساروا قاصدين مظفر الدين كوكبري صاحب أربيل فالتقوا به في موضع قريب من الكرخيتي فأقاموا هناك بقية شهر رجب وشعبان[4].

لقد خضعت كركوك مثل باقي مدن العراق في القرن السادس عشر الميلادي للسيطرة العثمانية، وفيها كانت جزءاً من ولاية الموصل، ثم أصبحت مركزاً لولاية شهرزور التي كانت تضم السليمانية وأربيل وكانت مرتبطة بولاية بغداد، وقد كانت كركوك في أثناء الحكم العثماني مسرحاً للعمليات العسكرية نتيجة للصراع العثماني الإيراني ولا سيما في عهد نادر شاه الذي توغل في العراق في سنة 1733م للاستيلاء عليه فأمر السلطان محمود الثاني

بتجهيز جيشاً بقيادة عثمان باشا الأعرج للتصدي إليه وكانت كركوك مقراً للقيادة الحربية، إذ تمكن عثمان باشا في بداية الأمر من إلحاق الهزيمة بجيش نادر شاه، لكن الأخير ما لبث أن عاد بعد شهور بجيش كبير وشن هجوماً مفاجئاً على القوات العثمانية في كركوك واحتلها بعد أن دكها بالمدافع، وفي عام 1743م نجح نادر شاه من السيطرة على معظم القرى التي تقع حول بغداد، وحاصر البصرة، وتوجه ببقية عسكره إلى شهرزور، ثم توجه إلى كركوك فحاصرها أيام عدة أمطر عليها وابلاً من القنابل. فمات فيها الكثير وخرب أغلب أبنيتها فأضطر أهلها الى التسليم[5]، وقد بقيت القوات الإيرانية في كركوك حتى الرابع من أيلول في عام 1746 إذ وقعت في هذا التاريخ بين الطرفين معاهدة صلح[6]، بموجبها رجعت كركوك ضمن الممالك العثمانية، وبقيت كذلك إلى أن أحتلها الإنكليز في عام 1918.

ومهما يكن من أمر، فقد وصفت كركوك في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلاديين بأنها من المدن الغنية المستقرة التي يحكمها متسلم، وتنتج أنواع كثيرة من الحبوب والفواكه ومنها القمح والشعير والقطن والحرير، وفيها مقالع للجص والحجر والحصى، وتكثر فيها عيون النفط الذي يستعمل في هذه الأنحاء وقود لإنارة المنازل بدل الزيت. وأهل المدينة نشطاء حرفيون يهتمون بالفنون وصناعة الأقمشة الخفيفة، ويقوم النساطرة فيها بصناعة أفخر أنواع الخمور، ومتسلمية كركوك في هذه الحقبة كانت مستعدة لإمداد والي بغداد بستمائة جندي مشاة بالسرعة المطلوبة اذا لزم الأمر[7].

الموقع الجغرافي:

تقع مدينة كركوك الحالية في شمال شرق العراق، وشمال مدينة بغداد بحوالي 280 كم بين خطي طول 44.24 وخطي عرض 35.28، وموقعها الجغرافي المتماز جعل منها أن تكون حلقة وصل بين وسط العراق وشماله، ومن أهم العوامل التي ساعدت كركوك أن تكون محافظة مهمة وحيوية في عصرنا هي غزارة الثروات الطبيعية فيها ومن أهمها النفط والغاز[8].

تقوم القلعة على تل مسطح يرتفع عن الأراضي المحيطة به بمقدار (18م)، والتل شبه دائري تنحدر جوانبه من كل الجهات بشكل تدريجي نحو الأراضي المحيطة بالقلعة. (الصورة - 1)، ومساحتها 62500م^2.

يمر في كركوك نهر يعرف بنهر الخاصة يقسم المدينة على قسمين شرقي وغربي ويعرف القسم الشرقي بالشطر القديم بوصفه يضم القلعة التي تعد أقدم موضع للاستيطان فيها، أما الشطر الغربي فيعرف بالقورية وهو الجزء الأحدث في التاريخ. (الصورة - 2) وكان الخاصة قديماً نهراً متدفقاً

يمتلأ بالماء في فصل الشتاء ويجف صيفا. لذلك أنشئت عليه جسور حجرية معقودة بأقبية ترتكز على دعامات فخمة وظيفتها مساعدة الناس على الوصول الى المدينة بيسر وسهولة، بيد أن هذه الجسور التراثية طالها التحديث فاستبدلت بأخرى جديدة مشيدة بالكونكريت، ومن أعظمها الجسر الذي يقع في الجهة الغربية مشيد أمام أحد أبواب المدينة وقد أزيل في عام 1954.

(الصورة - 1) صورة قديمة لمدينة كركوك من بعيد

(الصورة - 2) صورة لقلعة كركوك يحفها نهر الخاصة

بنية قلعة كركوك:

من الطبعي أن تشكل القلعة النواة الأولى للمدينة، ويبدو أن الانتشار خارج القلعة لم يكن واسعا في بداية العصر العثماني، وبقي محدوداً حتى بدايات القرن التاسع عشر وذلك نتيجة لعدم الاستقرار السياسي بسبب الصراع الإيراني العثماني وما صاحبه من حروب وكوارث طبيعية.

ويعد ما رسمه الرحالة العثماني نصوح السلاحي الشهير بمطراقي زادة في سنة 941هـ / 1534- 1535م الذي صاحب السلطان سليمان القانوني في معظم حملاته العسكرية ومنها حملته على إيران والعراق، من أقدم ما خلص إلينا عن كركوك موثقا بالصور إذ صور موضع كركوك وبنيتها التكوينية، وركز على نهرها المعروف بنهر (خاصه صو) وقد جعله ملتويا يحف بقلعتها، وفي ضوء هذا الإلتواء قسمت الصورة على ثلاثة أقسام يمثل القسم الأول قرية (ليلان) كما عرفها الفنان، واليوم هي مركز ناحية قرة حسن وتقع على بعد (19كم) الى الجنوب الشرقي من كركوك[9]. والقرية كما تظهر في الصورة ليست سوى مجموعة صغيرة من البيوت السكنية موزعة على ضفة النهر وبإزائها بساتين وحدائق مسورة. **(الصورة - 3)**

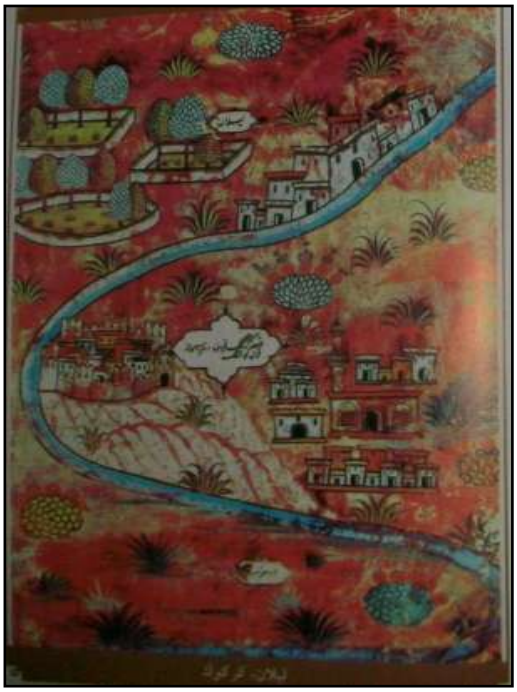

(الصورة - 3) كركوك كما رسمها المطراقي

أما القسم الثاني من الصورة فيمثل قلعة كركوك، وقد جعلها الفنان محاطة بالنهر من ثلاث جهات، وكتب على هذا الجزء من الصورة نص صغير باللغة التركية يشير فيه الى قلعة كركوك وموقعها على نهر خاصة صو قرب قزلر كوشك أي القصر الأحمر.

والحقيقة أن الصورة تعكس تحصينات المدينة وقلعتها المشيدة على تل مرتفع سفحه مغطى بقليل من النباتات، ويبدو أن الفنان قد نجح في تجسيم المدينة القديمة التي صورها وكأنها حصن عظيم يُشرف على سهل كثير الخضرة والعمارة. والقلعة تبدو محاطة بسور منيع تتخلله أبراج دائرية عالية والأبراج فخمة مزودة باستحكامات دفاعية كالمزاغل الشاقولية والشرافات المربعة التي تزين أعلى الأبراج، كما يظهر في الصورة أحد المداخل الرئيسة في المدينة مفتوح داخل برج كبير، ويبدو المدخل بارز عن سمت الجدار

ومحمي من الأعلى بمزاغل شاقولية يرمى منها بالسهام والبنادق، وفتحة المدخل متوجة بعقد نصف دائري. لقد ميز الفنان الأبراج بفخامتها وارتفاعها عن الأسوار وجعلها من الأعلى ذات نواصي محاطة بستارة وجدت لحماية المقاتلين من نيران الأعداء الذين يعتلونها عادة بقصد المراقبة أو القتال.

وبجانب القلعة قرية صغيرة تتكون من مجموعة بيوت مبنية من طابق واحد يتوسطها مسجد صغير ذات سقف مستوٍ والمسجد مزود بمئذنة اسطوانية ممشوقة القوام لها شرفة واحدة يطل منها المؤذن وقت الآذان، متوجة بقبيبة صغيرة خضراء اللون، وقد ميز الفنان عمارة المسجد عن باقي الأبنية بمدخله الواسع ونوافذه الكبيرة.

أما القسم الثالث الممثل بالجزء الأدنى من الصورة فهو كثير الخضرة والشجر، إلا أنه خال من الأبنية وقد كتب عليه نص بالفارسية (در سرآب) أي في رأس عين الماء أو الجدول[10].

من المؤكد أن مدينة كركوك في القرن السادس عشر كانت صغيرة المساحة، وأبنيتها موزعة فوق قلعتها فقط، لذلك لا غرو أن يكون عدد سكان المدينة محدود نسبياً إذ تشير بعض الوثائق العثمانية التي تعود إلى سنة 955هـ - 1548م أن عدد الأسر المسلمين فيها يبلغ مئة وأربع وخمسين أسرة، والمسيحيي خمس وثلاثين أسرة، وعدد اليهود مئة وأربع أُسر[11].

وكركوك من بين المدن التي كانت تستخدم قبيل الحروب قواعد إدارية ومستودعات للتموين والتجهيز والتسليح. ففي أثناء استحضارات السلطان مراد الرابع للحملة على بغداد في سنة 1047هـ - 1638م، أحكمت القلاع الحدودية ورممت قلاع المدن وزودت بمختلف أنواع الأسلحة والأعتدة ومواد التموين ومنها الموصل وكركوك، حيث لم يكتف (طيار محمد باشا) الذي عين محافظاً على الموصل بتحكيم قلعة الموصل بل أحكم جميع القلاع الصغيرة والمخافر القريبة منها، وأعيرت قلعة كركوك عناية خاصة، إذ زودت بوحدات عسكرية وبنادق ومواد إعاشة، كما زودت بمدفعين من طراز (زاربزن)[12].

لقد وصف الرحالة جون أوثر (1736 - 1743) كركوك بأنها عاصمة ولاية شهرزور، والمدينة متوسطة السعة تقع في سهل ذات تلال كثيرة، محاطة بسور وقلعة حصينة مبنية فوق مرتفع شديد الانحدار يجري عند سفحه جدول يسمى (خاصي صو) أي الماء العذب.[13].

كما وصف نيبور (1766) مدينة كركوك وقلعتها وكانت عند زيارته مقر باشوية من درجة طوغتين، والباشا يقيم قبالة المدينة في الجانب الثاني من النهر، ومنطقة نفوذه صغيرة جداً لأن الأراضي التي تقع بين داقوق وأربيل تعود بأجمعها إلى والي بغداد، وذكر نيبور شيئاً عن القلعة التي كانت تحتضن

المدينة الأصلية والمتموضعة على تل وصف بأنه شديد الإنحدار، والتل نفسه مزدحم بالسكان، يحيط به من الأعلى سور من الطين وفيه حامية من الينيجيرية ويدعى القلعة[14].

وفي عام 1807م زار كركوك الرحالة الفرنسي دوبريه ووصفها بأنها بلدة تقوم على مرتفع صناعي، محاطة بسور وفيها قلعة حصينة على مرتفع وعر ويجري عند أقدامه نبع ماء، وعندما تمطر السماء تجري المياه من كل مكان فتحيط بهذا المرتفع من كل جهاته وتحوله إلى جزيرة[15].

ويبدو أن السكن خارج القلعة أخذ بالتوسع والازدياد بشكل ملحوظ منذ مطلع القرن التاسع عشر، فبعد أن عجزت القلعة عن استيعاب النمو الطبيعي للمدينة وزيادة نسبة السكان، تفتقت أحياء جديدة وتوسعت أخرى قديمة، كل ذلك كان بسبب توافر الأمن والاستقرار النسبي في الإقليم وما صاحبه من نشاط تجاري داخل المدينة وخارجها، لذلك لا غرو أن نجد معظم الرحالة الأجانب الذين أموا كركوك أن يذكروا شيئاً عن سعة الأحياء السكنية الموقعة خارج أسوار القلعة، ومنهم على سبيل المثال الرحالة الإنكليزي المشهور بكنغهام (1816) الذي قدر نسبة السكان من خمسة ألاف الى ستة ألاف نسمة، يقيمون في ثلاثة مناطق واسعة أكبرها القلعة التي وصفها بأنها محاطة بجدران عالية كما في أربيل إذ يمكن رؤية مآذن الجوامع الثلاثة من بعيد[16]. وشاهد كركوك من بعيد المقيم البريطاني في العراق المستر ريج في عام 1820، وفي أثناء رصده للقلعة لاحظ أن هناك قسماً من التجمعات السكنية آخذة بالانتشار حول التل[17]. وكثافة السكن حول القلعة وأطرافها أكده رحالة أخر معاصر للمستر ريج هو المنشئ البغدادي الذي زارها في عام 1822 وقدر عدد بيوت المدينة بستة ألاف بيت منها مئة وخمسون بيتاً من النصارى وثلاثمئة بيت من اليهود[18].

إذن يمكن أن نستنتج من شهادات الرحالة سالفي الذكر أن القلعة أخذت في هذا التاريخ تفقد أهميتها كحصن دفاعي مؤمن ضد الغزوات، بسبب ضعف الأسوار فضلاً عن الأمور الأخرى مثل تطور الأسلحة الثقيلة ومنها المدفعية القادرة على دك الحصون وتهديمها.

تخطيط القلعة وحاراتها: (الخارطة - 1)

تختلف قلعة كركوك عن قلعة أربيل في التخطيط، وذلك لاختلاف طبيعة سطح التل الأثري في كل من المدينتين وتباين ارتفاعهما، وتخطيط قلعة أربيل شجري شوارعها تنطلق من الباب الجنوبي صوب الشمال ثم تتشعب في كل الاتجاهات وكأنها أغصان شجرة كبيرة بدأت من ميدان المدينة. أما قلعة كركوك فتخطيطها مرتبط بأبوابها الأربعة التي تقود إلى الشوارع الرئيسة في

المدينة وميادينها الواسعة تلك الشوارع التي تتشعب منها الأزقة الضيقة وتلتوي لتصبح بمثابة شرايين تربط مختلف نواحي المدينة وحاراتها السكنية الثلاث المتمثلة بمحلة (حمام) وكانت تحتل الجزء الجنوبي من القلعة ومحلة (أغاليق) في الجزء الوسطي من القلعة ثم محلة (الميدان) التي كانت تشغل معظم المساحات الكائنة في الناحيتين الشمالية والشمالية الغربية.

(المخطط - 1) مخطط لقلعة كركوك / عن دائرة الاثار

والأزقة الضيقة في القلعة متعرجة وقصيرة وفي معظم الأحيان غير مرصوفة وأن بعضها غير نافذ، تتوزع على جوانبها مجموعة كبيرة من البيوت يقدر عددها بنحو خمسمئة وستين بيتاً كانت معظمها مسكونة حتى ثمانينيات القرن الماضي، وفي الغالب تكون واجهات

البيوت المذكورة في طوابقها الأرضية صماء لا يظهر منها إلا الباب، أو تكون نوافذها عالية في أسفل السقف، أما من الأعلى فتطل منها أحيانا شناشيل خشبية دقيقة الصنع تفضي على واجهاتها نوعاً من الحركة المفعمة بعبق التراث.

كما ضمت القلعة عدداً من الجوامع التراثية من أقدمها جامع النبي دانيال وجامع العريان وكنيسة قديمة للكلدان ومجموعة من الأضرحة أو المزارات، فضلاً عن الأسواق وبيوت السكن الذي أصبح بعضها آيل إلى السقوط[19].

سور القلعة:

يتفق معظم المؤرخين والرحالة الأجانب أن قلعة كركوك كانت في العصر العثماني محاطة بسور، وهذا السور ما زالت بقاياه قائمة حتى وقتنا الحاضر، مبني باللبن ومدعم بأبراج نصف دائرية.

ويبدو أن قلعة كركوك لم تكن محاطة بالسور من كل الجهات، وأقتصر سورها على الأماكن الضعيفة والأقل حصانة أو الواطئة فقط، أما المواقع العالية في القلعة فقد اعتمد تحصينها على تلاصق الواجهات الخارجية لبيوت السكن كما هي الحال في قلعة أربيل، إذ وظف السكان أرتفاع موضع القلعة فوق التل وانحدار حافاته في التحصين والدفاع، فلجئوا إلى نمط خاص من أنماط الاستحكامات الدفاعية ونقصد به نمط المباني المتراصة[20]. أي بناء البيوت بشكل متلاصق دون أن يتخللها أية فضاءات أو مساحات خالية، وبهذه الطريقة أصبحت جدران البيوت المبنية على حافة التل تشكل سوراً قوياً قادراً على حماية المدينة والصمود بوجه الجيوش الغازية، وهذا ما حصل للمدينة عندما غزاها نادر قلي في عام 1743 إذ صمدت أيام عديدة.

والحقيقة أن جدران البيوت التي تطل على ظاهر القلعة ومحيطها قوية، إذ يراعى في بنائها الثخن والسماكة أي الارتفاع وبعضها يدعم بمساند تكون بمثابة الأبراج الهدف منها زيادة فعاليتها الدفاعية وفي الوقت نفسه حمايتها من السقوط والانهيار، ويبدو أن للسور في بعض الجهات وظائف أخرى فهو يحد من بعض الانهيارات التي تحدث في حافات التل الأثري نتيجة عوامل التعرية المختلفة.

أبواب القلعة:

للقلعة أربعة مداخل رئيسة هي:

1- باب الطوب (طوب قابي): (الصورة - 4)

ويقع في الجهة الغربية من المدينة وتاريخ إنشائه في عام 1882 كما تؤكد ذلك وثيقة محفوظة بالأرشيف العثماني باستانبول تحمل توقيع وكيل والي الموصل سري بك، والباب صمم ورُسم مخططه على ورقة على وفق مقياس الرسم، وبُعث به إلى استانبول للموافقة عليه ثم نُفذ في العام نفسه، وقد بادروا الأهالي بإنشائه لتامين وصولهم بأقرب الطرق بين القلعة والجسر في فصل الشتاء[21].

(الصورة - 4) باب الطوب

ومن الجدير ذكره، أن هذا الباب ما زال قائماً في موضعه وقد بقي محافظاً على شكله الأصلي من غير تشويه على الرغم من أن أعمال الصيانة التي أجريت عليه، وقوام تصميمه كتلة ذات واجهة مستطيلة مزينة بعقد عاتق مدبب الشكل يظلل لوح تأسيسي مفقود في الوقت الحاضر، واللوح على ما يبدو كان من الرخام يحمل كتابة تشيد بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1876-1909) وتؤرخ في الوقت نفسه للبناء.

تتوسط كتلة المدخل فتحة يربو عرضها على (4.50م) يعلوها عقد نصف دائري مبني بصنج من الحجارة الكبيرة، ويستند الى أكتاف فخمة مندمجة مع الجدران، وفتحة المدخل هذه تناظرها فتحة أخرى تطل على الشارع المؤدي إلى داخل المدينة متشابه معها في الشكل والأبعاد، أما السقف فقوامه قبو مرتفع يستند إلى الجدران المعززة باكتاف تحمل فوقها عقود.

ومن المفيد أن نشير إلى ناحية مهمة في تصميم هذا المدخل ألا وهي مراعاة البساطة في التصميم والابتعاد عن كل ضروب الزينة التي اعتدنا مشاهدتها في العمارة الأموية والعباسية، ولا غرو في ذلك ما دمنا نعلم أن هذا العمل منفذ بتبرعات جُمعت من أهل المدينة، لذلك نلاحظ جدرانه مبنية بالحجارة غير المنحوته ومجللة من الداخل والخارج بالجص، ومن الملاحظ أن كتلة المدخل متوجة بشكل مسنم من البناء على الطراز الأوربي الذي شاع في عصر النهضة، المتأثر بدوره بالمداخل الرومانية الفخمة التي كانت تتوج عادة بقوصرة (pediment) أو كما تسمى أحيانا بالجبين المثلث[22]، إذ توجد أمثله منه على بعض الأبنية العسكرية في العراق ومنها على سبيل المثال قشلتي بغداد وكركوك.

2- الباب الحجري (داش قابو):

يفتح الى الغرب ويتصل بالجسر الحجري القديم، الذي شيده المشير نافذ باشا فوق نهر خاصة، بواسطة درج كان في الأصل منحوتاً في الأرض الصخرية، وقد تهدم هذا الباب في تاريخ سابق لا نعلمه، كما تهدم الجسر الحجري وأزيل في عام 1954 وكان يتكون من ستة عشر طاق، وموضع الباب مرتفع لذلك الخارج منه يواجه نهر الخاصة الذي كان في العصر العثماني غزير المياه. (الصورة - 5)

(الصورة - 5) الباب الحجري

3- باب السبع بنات (يدي قزلار):

الخارج من باب السبع البنات يتجه نحو الجنوب أو الجنوب الشرقي من المدينة، وكان من الأبواب الحيوية لكنه أزيل مع الأبواب الأخرى للقلعة.

4- باب الحلوجية:

يقع إلى الشمال من باب سبع البنات ويكون مواجهاً للجهة الشرقية، والخارج منه يواجه سوق الحلوانية.

لم تكن في كركوك قلعة داخلية، بيد أن العثمانيين سعوا الى بناء قشلة مازالت قائمة سوف نتعرض إليها في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

أهم الأبنية الدينية:

تخلف في القلعة مجموعة من الأبنية الدينية، تمثلت بالمساجد والأضرحة والكنائس فضلاً عن تكية تعرف بتكية وجامع محمد نجيب الرفاعي، وكُتاب لتعليم القرآن الكريم عرف بكتاب الشيخ غازي، وعدد من المدارس.

إن من أهم الجوامع التي مازالت قائمة في القلعة هو الجامع الكبير (أولو جامعي) الذي يعتقد بأنه كان كنيسة في الأصل، ثم تحول الى جامع قبل العصر العثماني، والجامع مسقف بأقبية ترتكز على عقود مدببة محمولة على أكتاف مربعة فخمة، وفي نهاية رواق القبلة ضريح يتصل بحجرة تعلوها قبة مكسية ببلاطات مزججة زرقاء اللون. (المخطط - 2)

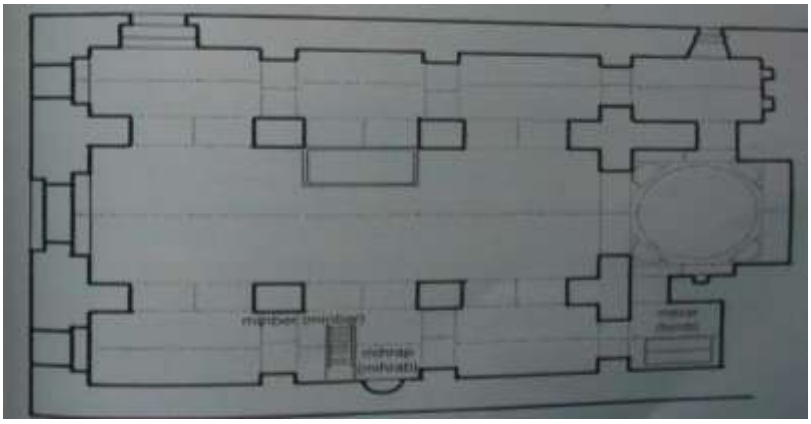

(المخطط - 2) الجامع الكبير (أولو جامعي)

ومن الجوامع الأخرى الأثرية المهمة في قلعة كركوك هو جامع النبي دانيال الذي يحظى بزيارة السكان لوجود أضرحة في داخله تنسب الى بعض الأنبياء حنين وعزرا ودانيال. وقد علت قبورهم قبتان كسيتا ببلاطات مزججة بالون الأخضر المزرق (الأزوردي). وينماز هذا الجامع بمئذنته الممشوقة التي تعود الى العصر المغولي على أرجح الآراء، وهي ذات شكل أسطواني مزودة بشرفة واحدة تستند الى ثلاثة صفوف من المقرنصات، مبنية بالآجر ومزينة ببلاطات مزججة تساقط معظمها. (الصورة - 6)

(الصورة - 6) جامع النبي دانيال

وهناك جوامع أخرى مهمة بالقلعة منها جامع حسن مكي ومرقده، وجامع الإمام قاسم ومرقده، وجامع حسن باكيز ومدرسته وقد تهدم مؤخراً، ومن الأبنية الدينية المهمة في القلعة ضريح قائد الجيش طوبال عثمان باشا الذي استشهد في عام 1733 إثر هجوم نادر شاه على مدينة كركوك، إذ أعد له ضريح أكتمل بنائه بعد عامين من استشهاده كما تنطق الكتابة المنقوشة على لوحة من الرخام باللغة العثمانية، وقد أمر بالبناء أحمد باشا ابن حسن باشا.

وهناك مزار عرف بـ(كوك كومبت) أي القبة الزرقاء مؤرخ بكتابة تحمل تاريخ 762هـ (1361م)، والبناء مثمن من الخارج ومربع من الداخل. والضريح هنا يشبه الى حد كبير مساجد المقصورات (كوشك مسجد) التي كانت تعلق على أعمدة في وسط الخانات السلجوقية[23]، ويشبه أيضا الأضرحة البرجية التي تبنى مدافن لكبار الشخصيات في أسيا الوسطى. وتصميمه يذكرنا بضريح يحيى بن القاسم في الموصل الذي تعلوه قبة مزدوجة مقرنصة من الداخل ومضلعة من الخارج، وتاريخ بنائه في القرن السابع الهجري.

إن هذا الضريح مبني بالأجر ومزين بزخارف كثيرة غطت معظم الأوجه الخارجية للبرج المثمن، وقوام الزخارف عناصر نباتية وهندسية محفورة بشكل غائر على قطع الآجر ومؤطرة بأشرطة من الخزف الأزرق، والضريح متوج بقبة مزدوجة، تبدو من الخارج مضلعة لها ثمانية أوجه. (الصورة - 7)

لقد أستعمل الضريح لدفن أمرآة شابة ماتت في عام 762هـ وعمرها أربع وعشرون سنة كما يشير النص الكتابي الذي زين واجهة المبنى منفذ على بلاطات مزججة باللون الأزرق.

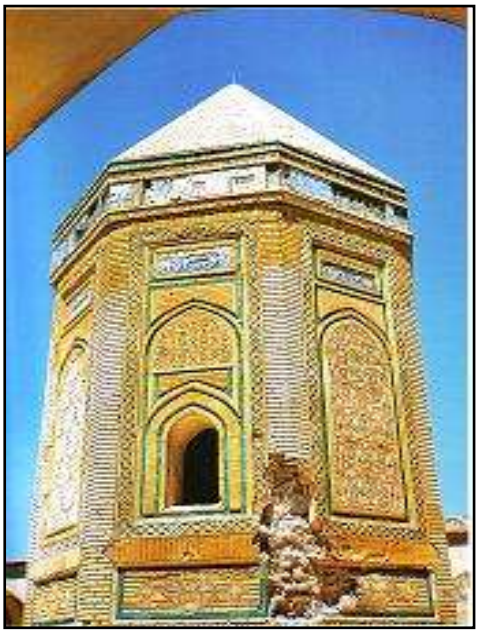

(الصورة - 7) ضريح القبة الزرقاء

ومن الأبنية الدينية المهمة في القلعة كنيسة الكلدان وتسمى (أم الأحزان) وقد بنيت على انقاض كاتدرائية قديمة، تقوم سقوفها وأروقتها على عقود ترتكز على أعمدة رخامية، وهي مجددة في نهاية العصر العثماني، كما يوجد أبنية تراثية أخرى ذات صفة دينية، لكن ليس بالوسع أن نأتي عليها لأنها كثيرة.

أهم الأبنية الخدمية:

يمكن حصر أهم الأبنية الخدمية في القلعة بأمثلة ذات وظائف مختلفة منها القيصرية وعدداً من بيوت السكن.

أما القيصرية فتعرف لدى العامة بـ(قيلجيلر بازاري) أي سوق النساجين، وتمثل أقدم سوق بالقلعة وهو على الأرجح يعود للحقبة السلجوقية. أكتشف مطموراً تحت الأنقاض، فأعادت دائرة الآثار العراقية بنائه على وفق تخطيطه القديم في ثمانينيات القرن العشرين. يتكون من أربعة وثلاثين دكاناً مبنية بالحجر الأحمر، والدكاكين في هذه القيصارية متقابلة لها واجهات مؤطرة

بالرخام، وهي تنفتح على ممر وسطي عرضه(5.60م) مسقف بقبو طولي مرفوع على عقود. (الصورة - 8)

سوق النساجين(الصورة - 8)

إن عدد بيوت السكن في قلعة كركوك تزيد على سبعمئة بيتاً، ويمثل بعضها أمثلة مهمة للفن العماري وأكثرها خربة، وقد خضع عدد يسير منها للترميم، بيد أن معظم أخشابها ولاسيما الأبواب والنوافد قد سرقت بعد الاحتلال الأمريكي في عام 2003. وقد استملكت دائرة الآثار العامة عشرون بيتا كان من المؤمل صيانتها والمحافظة عليها بوصفها أمثلة نادرة من العمارة المحلية، ثم السعي لاستعمالها متاحف ومقرات أو دوائر للهيآت الأثرية، وقد أنجزت خمسة بيوت منها أو ستة فقط.

انمازت بيوت الطبقة الغنية في قلعة كركوك بفخامة مداخلها وزخارفها، ففي الكثير من الأحيان تكون المداخل مكسية بالرخام ومشغولة بأبواب خشب من مصراع واحد، وهذا المصراع يزين عادة بمسامير محدبة تتوزع على سطح الباب لترسم أشكال هندسية.

المدخل يؤدي إلى مجاز مسقف بقبو، يقود الى صحن مكشوف في وسطه بركة ماء وحديقة يزرع فيها بعض أشجار الفاكهة والورود، والصحن من أكثر الأماكن في البيت حيوية حيث يشهد معظم الفعاليات اليومية التي يقوم بها أصحاب الدار ولاسيما في فصل الصيف.

تتوزع على محيط الصحن عادة أربعة أجنحة بنائية يتوسط أحداها أيوان واسع ذات سقف مرتفع ينفتح على الصحن بعقد، ولهذا الأيوان واجهة مزينة بالزخارف، ويكون في البيوت المنسوبة للعصر العثماني مسقف بقبو مدبب محمول على عقود تستند على أكتاف مندمجة مع الجدران، أما الأواوين الملحقة في البيوت المبنية بُعيد العصر العثماني فتكون سقوفها مستوية لأنها

اعتمدت على الحديد (الشيلمان) في التسقيف. وفي كل الأحوال تزين ثلاثة الجدران في الأيوان بسلسلة من الحنايا الصماء التي من شأنها أن تقضي على الجمود وتضفي على المكان نوع من الحركة والانسجام، ولاسيما أن الحنايا المذكورة تكون في الغالب مفعمة بالزخارف الجصية النباتية والهندسية.

إن معظم البيوت التراثية في قلعة كركوك تتألف من طابقين، وتضم مجموعة من الحجرات والغرف التي يتقدمها رواق يستند من جهة الصحن الى اعمدة حجرية أو رخامية ذات تيجان مزخرفة، وهذه الحجرات تسقف بالخشب وفي بيوت الميسورين تسقف بالقباب الضحلة، وبواطن هذه القباب تزين بزخارف جصية محفورة بشكل غائر ومشبعة بأصباغ ملونة في غاية الدقة والجمال.

ومن المفيد ذكره أن بعض البيوت التراثية الفخمة في قلعة كركوك، تضم جناح خاص للضيوف وهذا الجناح يكون عادة معزولاً عن بيت الأسرة. مزود بكنيف ومكان للنوم فضلاً عن قاعة الجلوس، ليس هذا فقط بل هناك بيوت في القلعة كبيرة المساحة تتكون من قسمين كل منهما مزود بصحن رتبت حوله عدد من الوحدات البنائية بطابقين، يسمى الأول (سلاملك) وهو معد للضيوف والثاني يسمى (حرملك) بوصفة معد للأسرة، ويلحق في القسم المخصص للأسرة أحياناً جناح خاص بالخدم، وفي كل قسم نلاحظ وجود إيوان وعدد من الحجرات والغرف تتقدمها أروقة ترتكز من الأمام على أعمدة من الرخام، فضلاً عن الوحدات الخدمية المكملة من كنيفات وحمام ومطبخ.

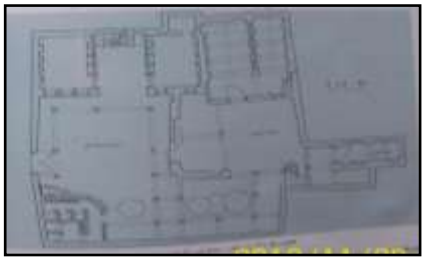

(المخطط - 3) بيت طيفور في القلعة عن الساعتجي

(الصورة - 9) بيت طيفور قسم الضيوف

الخاتمة

توصلت الدراسة الى نتائج يمكن حصرها بالنقاط الآتية:

1- ركز البحث على معرفة تاريخ المدينة وبدايات نشؤها وتطورها وصولا الى العصر العثماني، إذ خضعت كركوك مثل باقي مدن العراق في القرن السادس عشر الميلادي للسيطرة العثمانية، وفيها كانت جزءاً من ولاية الموصل، ثم أصبحت مركزاً لولاية شهرزور التي كانت تضم السليمانية وأربيل وكانت مرتبطة بولاية بغداد.

2- تحدث البحث عن طبيعة تخطيط القلعة المرتبط بأبوابها الأربعة التي تقود إلى الشوارع الرئيسة التي تتشعب منها الأزقة الضيقة وتلتوي لتصبح بمثابة شرايين تربط مختلف نواحي المدينة بثلاث من وحاراتها السكنية المتمثلة بمحلة (حمام) ومحلة (أغاليق) ثم محلة (الميدان).

3- وبشان التحصينات فقد توصل البحث الى أن قلعة كركوك لم تكن محاطة بالسور من كل الجهات بل اقتصر سورها على الأماكن الضعيفة والأقل حصانة أو الواطئة فقط، أما المواقع العالية في القلعة فقد اعتمد تحصينها على تلاصق الواجهات الخارجية لبيوت السكن كما هي الحال في قلعة أربيل، أما الأبواب الأربعة فهي مجددة وبعضها بني على حساب الأهالي كما نصت عليه الوثائق المحفوظة في الأرشيف العثماني باستانبول.

4- شمل البحث عدداً من المعالم الدينية والخدمية التي مازالت قائمة في قلعة كركوك، ومنها مساجد قديمة وأضرحة وكنائس وأسواق وبيوت سكن، بقصد توثيقها وبيان طرزها الفنية.

5- الاعتماد على المواد المحلية في البناء من آجر وحجر ورخام محلي وجص وخشب، أكد هوية المعمار العراقي الذي وضع بصماته في تشييدها فأبدع في صنع قبابها وأقبيتها وعقودها وأعمدتها.

هوامش البحث:

[1] - ياقوت الحموي معجم البلدان،ج4 ، دار صادر بيروت 1995، ص450

[2] - مصطفى جواد، كركوك في التأريخ، ضمن بحوث موسوعة كركوك قلب العراق، دار الكلمة الحرة، بيروت، 2008، ص60.

[3] - ابن الأثير عز الدين علي (ت630هـ)، الكامل في التأريخ ج10، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت 1417- 1997، ص 450.

[4] - ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ، بغداد، 1351، ص7.

[5] - عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج5، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2004، ص309

[6] - المرجع ننفسه، ص315.

[7] - سيستيني، العراق في رحلة الأب دومينيكو سيستيني في سنة 1781، ترجمة خالد عبد اللطيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014، ص 190.

روسو، وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة خالد عبد اللطيف حسن، مطبعة النهار الجديد، بغداد، 2012، ص65

[8] - طارق كامل، جغرافية طبيعة كركوك، ضمن موسوعة كركوك قلب العراق، دار الكلمة الحرة، بيروت، 2008، ص 17.

[9] - عن قرية ليلان في العصر العثماني أنظر: ريج، كلوديوس جيمس، رحلة ريج الى العراق عام 1820، ترجمة بهاء الدين نوري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008، ص61.

[10] - عماد عبد السلام رؤوف، العراق كما رسمه المطراقي زادة سنة 941هـ/ 1534م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 2015م، ص 258 – 259.

[11] - صبحي ساعتجي، كركوك وهويتها العمرانية، كركوك، 2010، ص34.

[12] - زاربزن: مدفع استخدمه الجيش العثماني بكثرة لخفة وزنه وقصره اذ يبلغ طوله سبعة أشبار فقط، لذلك يستعمل لإسناد قطعات المشاة، ويصنف ضمن المدافع الجبلية التي ترمي قنابل بأوزان قليلة.

تحسين أونال، استحضارات السلطان مراد الرابع للحملة على بغداد، ترجمة صبيح ناظم توفيق، ضمن بحوث بغداد في مؤلفات الرحالة الأجانب منشورات بيت الحكمة، مطبعة كركي، بغداد، 2013، ص252.

[13] - جان أوثر، العراق والخليج العربي في رحلة جان أوثر (1736 - 1743)، ترجمة خالد عبد اللطيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015، ص69.

[14] - نيبور، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين أمين، ضمن رحلة نيبور الكاملة الى العراق، دار الوراق، بغداد، 2012، ص308.

[15] - دوبريه، رحلة دوبريه الى العراق (1807 – 1809م)، ترجمة بطرس حداد، دار الوراق، بغداد، 2011، ص84

[16] - بنكغهام، جمس، رحلة بكنغهام إلى العراق، ج1، ترجمة سليم طه التكريتي ، مطبعة اسعد، بغداد، 1968، ص142.

[17] - ريج، المصدر السابق، ص60.
[18] - المنشئ البغدادي، رحلة المنشئ البغدادي 1237 - 1822، ترجمة عباس العزاوي، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1367- 1948، ص64.
[19] - قامت الحكومة العراقية عام 1990 باستملاك الدور السكنية في القلعة وأمرت بإخلائها بعد تعويض أصحابها ومنحهم أراضي سكنية، سعياً لجعل القلعة معلم من المعالم الأثرية في العراق والعمل على صيانتها.
[20] - محمد طه الأعظمي، من الاستحكامات الدفاعية الفريدة في قلعة أربيل، تاريخ أربيل ودورها الحضاري، وقائع المؤتمر العلمي الثاني، أربيل 2013، ص263
[21] - صبحي ساعتجي، المرجع السابق، ص42
[22] - سعدي إبراهيم الدراجي، القلاع العثمانية في برقة 1638-1912م، مدونة الآثار العثمانية، أعمال المؤتمر العالمي الخامس ، مؤسسة التميمي، تونس، 2001م، ص42.
[23] - صبحي ساعتجي، المرجع السابق، ص36.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأثير عز الدين علي (ت630هـ)، الكامل في التأريخ ج10، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت 1417- 1997.
- ابن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ، بغداد، 1351هـ.
- المنشئ البغدادي، رحلة المنشئ البغدادي 1237 - 1822، ترجمة عباس العزاوي، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1367- 1948.
- بنكغهام، جمس، رحلة بكنغهام إلى العراق، ج1، ترجمة سليم طه التكريتي ، مطبعة اسعد، بغداد، 1968.
- جان اوثر، العراق والخليج العربي في رحلة جان أوثر (1736 - 1743)، ترجمة خالد عبد اللطيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2015.
- دوبريه، رحلة دوبريه الى العراق (1807 – 1809م)، ترجمة بطرس حداد، دار الوراق، بغداد، 2011.
- روسو، وصف باشوية بغداد سنة 1809، ترجمة خالد عبد اللطيف حسن، مطبعة النهار الجديد، بغداد، 2012.
- ريج، كلوديوس جيمس، رحلة ريج الى العراق عام 1820، ترجمة بهاء الدين نوري، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008.

- سعدي إبراهيم الدراجي، القلاع العثمانية في برقة 1638-1912م، مدونة الآثار العثمانية، أعمال المؤتمر العالمي الخامس ، مؤسسة التميمي، تونس، 2001.
- سيستيني، العراق في رحلة الأب دومينيكو سيستيني في سنة 1781، ترجمة خالد عبد اللطيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014.
- صبحي ساعتجي، كركوك وهويتها العمرانية، كركوك، 2010.
- طارق كامل، جغرافية طبيعة كركوك، ضمن موسوعة كركوك قلب العراق، دار الكلمة الحرة، بيروت، 2008.
- عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج5، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2004.
- عماد عبد السلام رؤوف، العراق كما رسمه المطراقي زادة سنة 941هـ/ 1534م، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، 2015.
- محمد طه الأعظمي، من الاستحكامات الدفاعية الفريدة في قلعة أربيل، تاريخ أربيل ودورها الحضاري، وقائع المؤتمر العلمي الثاني، أربيل 2013.
- مصطفى جواد، كركوك في التأريخ، ضمن بحوث موسوعة كركوك قلب العراق، دار الكلمة الحرة، بيروت، 2008.
- نيبور، رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين أمين، ضمن رحلة نيبور الكاملة الى العراق، دار الوراق، بغداد، 2012.
- ياقوت الحموي معجم البلدان،ج4 ، دار صادر، بيروت، 1995.
- تحسين أونال، استحضارات السلطان مراد الرابع للحملة على بغداد، ترجمة صبيح ناظم توفيق، ضمن بحوث بغداد في مؤلفات الرحالة الأجانب منشورات بيت الحكمة، مطبعة كركي، بغداد، 2013.